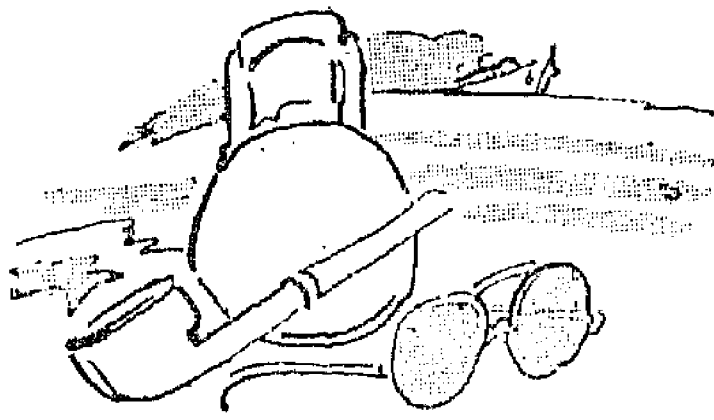




الأقرع الذهبي . انسان أقرع وذهبي .
أعني أقرع الجيب ، خاوي الوفاض . .
بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق
دائم . . وهو بمد كل هذا ذهبي فنجري .

الذهبي ..

م هذا ذات صيف ، في زمن خلا ، زمن كنت فيه نموذجاً للأقرع النزهى . . .

ويبدو لي أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف التارىء شيئاً عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى . . . إنسان أقرع ونزهى . . . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فنجرى ، ابن حظ ، محب للفرشة ، والصرف ، والتهيص ، فهو يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب ويشتهى ، وعلى الله التداير .

أقول إني كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نموذجاً للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى « كنت فى زمن خلا » ، أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهياً ، وأن ضيق الوقت

وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة . قد أضاعت من النفس
خفتها وصدها عن اللهو والعبث ، وسدت في وجهها سبل
الفرفشة والتهيص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب في حمارة القیظ ، و طيب
الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط
الشرد ، تلفح وجهي وتشوى بدني ، وبين أن أغلقها ،
فأكتم أنفاسي ، وأسلق جسدي ، وأضحي كما يقولون
« عرق مرقى » .

عندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضي ،
يحلولي أن أعزى النفس ببعض ذكريات صيفية تندى
عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف
وإغراء الشاطئ والمستلقيات على الشاطئ .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا
حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وإن كنا نحس وقتذاك أننا في
عنقوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح
منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس — عدانا — ما بين
صبي أحق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبية ، مہرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف
بأن في الحياة أحزاناً ، وكان شعارنا بسمه على الشفاه ،

وفهقة تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك
من منابت الحزن ، ونستدر البسات من موارد البكاء ،
لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويخلق أفواهنا ، حتى في
مواقف العزاء وتشجيع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا
علام الحزن بشق الأنفس ، إذ نذهب لتعزية أحدنا في
وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشاً
اقترضه في منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعياً الحزن ،
حتى تصيبنا نوبة من الضحك نلاقي الأمرين في كتمها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى إنسان — مهما ثقل
دمه — مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله
وتصرفاته .

وكنا نلعب معاً في تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم
طبعاً ، ولم يكن وضعنا في التيم ناتجاً عن إجادتنا للعبة بل
كان منا مجرد عفونة وتلحمة وخوف من مراقب الفريق
من طول لساننا ورغبة منه في مداراتنا والانتفاع بنا فيما
يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائماً السبب في هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب
الكرة قد رأت أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا
من تقارض المديح وتبادل الثناء ، و « الهارد لك »

ويحيل لى أنى أستطيع - بمنتهى السهولة - أن أملأ
عشرات الصفحات . . عن حوادثنا وقتذاك وعن النوادر
المختلفة التى كانت تقع لنا ، ولذا أخشى أن أترك لنفسى
العنان فأملأ حين القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن
أنهت كتابتى بمجرد مقدمة بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير
أن ندخل على القصة رأساً .

فى ذات صيف رأينا - بلا داع - أن نذهب
للتصيف فى الإسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ،
أقولها قول الواصل الجازم ، لأنه ، أولاً ، لم يسبق لنا عادة
التصيف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين
روض الفرج وقصر النيل ، وثانياً ، لم تفكر عائلة أى منا
فى التصيف حتى يكون ذلك داعياً لسفر أحدنا وأخذ
صاحبه معه ، وثالثاً ، لم يكن لأحد منا أى أقارب يمكن أن
يستضيفونا فى الإسكندرية . ورابعاً لم نكن نملك حرية
السفر دون أهلنا ، وخامساً وهو أهم من كل ما سبق ،
لم يكن معنا النقود التى تكفيها للتصيف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق ذكره ، قررنا التصيف ،
فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه

لا مستحيل في الحياة ، وما دمنّا على قيد الحياة ، فكل شيء ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصنيف وتحايانا على أهلنا مدعين أننا سنذهب في رحلة مع المدرسة لنعسكر في خيام على شاطئ سيدي بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه مبعاً ، وبدأنا بموازنة الميزانية .

ولم تكن موازنتها — نظرياً — بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدّرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالإيراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون — بهذا المبلغ التافه — إلا جهاداً وكفاحاً لا من أجل التصنيف والتنزه والفرشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء — في المصيف — على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد والزواد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التي يمكن أن تعيننا

في الضراء وتشد أزرننا في البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية
لا بأس بها من القراقيش وعلب المربي والسردين .
واستطعت أنا - بالإضافة إلى ذلك - أن أسرق قدرة
من الجبنة القديمة وصفيحة عسل وبرطمان مخلل . . كنا نعدّها
يومذاك من أئمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أقرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب إلى
المصيف إلا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة - في
عرفنا - لكل أرسقراطي منتفخ الجيب ، من مايو
صوف وبرنس ، إلى قميص حرير أبيض سبور وبنطالون
فانلة ، إلى كاسكت ونظارة سوداء وبيب (غليون) .
ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد
منا أن يبتاع طقمه كاملاً . فقد ابتعنا واحداً من كل نوع
واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرسقراطي إلى ثلاثة أقسام
نتبادلها يوماً بعد يوم . فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس .
والثاني يرتدى القميص والبنطالون ، والثالث يتمتع
بالكاسكيت والنظارة والبيب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب إلى أهل الريف .
بذلك الحرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفيحة
العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا إلى الإسكندرية وقد تملكنا

إحساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب . .
ولست أريد الإطالة في سرد التفاصيل والعقبات التي
صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور — بقدرة قادر — في
إحدى الكباين الخشبية في بقعة ما ، بشاطئ الإسكندرية ،
والواقع أنى لا أدري حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات
وتخطي الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء
تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا اتبعنا نظرية « دع الحياة
تسير » ، وأننا « ما دمنا أحياء فلا شئ مستحيل » ، وهكذا
وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى
تستقر في كايينة « مدام ماريكا » ، التي تنازلت لنا عن حق
سكنها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيهات ، وبرطمان المخلل ،
وزيارتها لنا ثلاث مرات يومياً ، لتطمئن على سلامة الكايينة ،
ولتأكد أننا لم نحملها ونعود بها إلى القاهرة .

وجلسنا في الكايينة الجرباء المشققة ، كنا نسير فيها
فتقرقع أرضيتها تحت أقدامنا فتذكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت

ولكن نزلت إلى السابعة

فلا فرق ما بين أنى أكون

بها أو أكون على القارعة



وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فستجد حيطانها الراكعة

إذا ما قرأت إذا زلزلت
خشيت بأن تقرأ الواقعة
ولم تكن كابينته « مدام مريكا » بأفضل كثيراً من دار
الشاعر . ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحه بها ،
إحساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا
نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على
الأرض ، كأننا لم نهم على فراش أو مرتبة من قبل .

ورتبنا الأطعمة في دولاب المطبخ واتفقنا على أن
نكون عقلاء منظمين ، وأخذنا في كنس الكابينة
ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة
ووضعنا فيما بيننا نظاماً للخدمة — إذ لم يكن من المعقول
أن نفكر في إحضار خادم — واتفقنا على أن تكون
الخدمة بالنوبتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار في يوم كامل
يبدأ من الشروق وينتهي في شروق اليوم التالي ، على أن
يؤدي لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ

وغسل أوان وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة « مدام ماريكا »
والإعجاب بها .

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مريحة هائلة ، وتعود كل
منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تدمير ،
وتعود دنا كذلك تبادل مهمات الأرستقراطية — وهي
ملابس الشاطئ — دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .
وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ،
ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ،
وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفاً إليها
الحواشي والرتوش ، مضيفاً عليها من بنات أفكاره
ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفي ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه
على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهما في مقابلة مدام
ماريكا التي لم تنقطع قط عن الحضور ، وفي تلقى تأنيبها على
الإسراف في استعمال المياه وكان الرفيق الآخر — كما
يدعى — على موعد غرام .

وكنت أشعر في ذلك اليوم أننى على أتم حال من
الوجاهة والأرستقراطية ، فقد كان نصيبي في ذات اليوم
من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكتة والبايب .

وكنيت قد استعرت من صاحبي الملازم للدار — أى الذى
سيقوم بالخدمة — نصيبه المكون من القميص الحرير
والبانطاون الفاتلة الأبيض .

وقد كان يتملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة
والكاسكيت والبايب ، إذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه
الأشياء أنى قد أصبحت إنساناً آخر أقرب إلى الملوك
والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال
فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود
الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابضة على رأسى ، والنظارة
السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا ولتسقوط الشمس
وشروقها . إن الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرسقراطية ،
فهل يعقل أن تغيب الأرسقراطية والمظهر الجذاب بمجرد
غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب
والبانطاون والقميص ، وقد خيل إلى أن أنظار الناس قد
تسمرت فى . . وأخذت تحددجنى ، وأنى قد بت شغلهم
الشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل إلا التهامس
على والإعجاب بى .

وهزرت رأسى وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد

وأما من قبل من ارتدى النطقمين معاً ، طقم الكاسكت
وطقم القميص والبنطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التي قل أن يجود بمثلها
الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقي بدلوى في الدلاء ،
وأن أبدأ عملية المعاكسة و « البصبصة » وأنا على حالي تلك
من الوجامة والأناقة ، فلا أظنني أستطيع أن أقع على
صيد أثنى مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية
المزدوجة .

ويشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد في غمضة عين . .
وأى صيد ! ! صيد لم أكن أحلم به . . ولا أفكر فيه ،
ولا أتطاول إليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة .
نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، « زاعق » الجمال .
لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها .
فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين إلا أن
تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدري ، أكان حقاً سر النظارة السوداء
والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع

الفتاة في شراكي ، أم كانت المسألة مجرد بحث حلو ، وفضل
من الله . . ؟

على أية حال ، لم يكن لدى وقتذاك فرصة للتفكير فتقد
كنت في حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسي
— بدون جهد — أقف بجوارها متمسكاً على الكورنيش .
وقد تلاصق كتفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء
قدامى .

ولم تكن فرحتي في الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها
بل كانت ناتجة عن تصوري ما أنوى قصه على صاحبي
ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرتب في ذهني
التحاييش والتحاوير التي أنوى إضافتها إلى مغامرتي الجديدة ،
وكنت أمعن النظر في وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفها
لها جيداً .

واستمر الحديث بيننا هادئاً ممتعاً ، حتى أخبرتني في
خلاله أنها ابنة « فلان باشا » . وأحسست برأسي يدور ،
من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود إلى البيت حتى
أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما « الأملة » التي
أصبت بها وليتأكدوا أن مغامرتي حقيقة واقعة ، لا ادعاء

فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت في هوى . .
العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء في الساعة صباحاً
والشاطيء نال ، وتركتهما وانطلقت إلى الكايينة لأقص على
صاحبي ما حدث لي وأنبئهما بالموعد الصباحي .
ولم يبد عليهما ، علائم التصديق ، وهزا رأسيهما .
كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لهما ،
بلهجة الواثق ، أنهما يستطيعان التأكد من صدق قولي بأن
يذهبا للشاطيء في الساعة السابعة حيث ألتقي بالحبيبة
الأرستقراطية .

وهزّ أحدهما رأسه مستنكراً وتساءل :

— الساعة السابعة ، باكر ؟

فقلت في ثقة :

— أجل .

— أنسيت أنك نوبتجي باكر .

نوبتجي !! . . أجل ، لقد نسيت النوبتجية . . إن عليّ

أن أقوم بدور الخدمة في الغد .

ولكني لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة في العالم

يمكن أن تمنعني من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلاني ، فأبيا ، وتوسلت إليهما فأصرتا
على الإباء .

واستيقظت في الساعة الخامسة صباحاً بعد أن صممت
على أن أنهي كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم
أنطلق في السابعة إلى موعدى ، ماذا يريدان مني أكثر
من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمراً عن ساعدى وبدأت أعد
معدات الطهى الذى جهزت لوازمه من الليل .
وكان على أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور
فإذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة ، حتى كنت مستقراً بكوم الحلال
أمام الحنفية على شاطئ البحر ، وبدأت عملية الدعك
بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت
النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت
« قل مفتح » .

وفركت يدي فرحاً واغترباطاً .. وهممت بالنهوض ،
راضياً عن نفسى كل الرضاء .

ورفعت بصري ، فإذا بى أجدها هى ، بدمها ولحمها
وصدرها وساقها ، الحبيبة الأرسقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفى ، وهى تتأملنى وقد جالست أمام كرم
النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلوثت يداى بالهباب
وأغرقت ملابسى بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بى ووجدتني بحركة لا إرادية ،
أرفع يدي إلى وجهي فألوته بالهباب ثم أقول لها بصوت
ذليل متواضع كأننى لست أنا ، بل مجرد خادم لى :
— سيدى جايلك حالا .

ثم ألقع النحاس على كتفى وأسير مغنياً بأعلى صوت :
« سلم على . . سلم على » . لما جايلنى وسلم على ، يا بوى
يا بوى .

ووصلت إلى الكابينة فوضعت النحاس فى المطبخ
وجالست برهة أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمازجة
نفسى ، وأخذت أزيل من وجهي الهباب وقد صممت أن
أثأر لنفسي من صاحي فلا أذيقهما طعاماً . . وأن
أرتدى كذلك الطقم الأرستقراطى بالكامل فأحرهما من
التمتع بنصيتهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتدياً المايوه الصوف
والقميص الحرير ، والبنطاون ، والكاسكت ، والنظارة ،

والبايب ، وفوق كل هذا ، البرنس ، حتى لا أترك لها قطعة واحدة من قطع الأريستقراطية .

وعدت إلى الشاطئ فوجدتها مستلقية على الرمال وحييتها في رقة ، فنظرت إلى في دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

— انت لابس هدوم سيدك ؟

يا للفتاة الخبيثة ؛ لقد أصرت على أننى ما زلت الخادم ، ولم تصدق أبداً أننى فى هذه المرة . . كنت « سيدى » نفسه . وأخيراً اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها إنى صحت عندما رأيتها أمامى وأنا أغسل الحلال . وكانت رقيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

— لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، إذا ما لقيتنى تسألنى مقهقهة :

— إزاي سيدك ؟

